

مدخل

لقد درج « ميشليه » في معرض كلامه عن هذا القرن الثامن عشر ، على ان يدعوه ، بلهجته النبوية : « القرن العظيم » . اما « رينان » فقد تصرف تصرفاً على بعض الاستخفاف حيال عصر « نعم الانسان فيه بحرية الفكر ، ولكنه في الواقع لم يفكر كثيراً فكان الكسب ضئيلاً » . ان ميشليه قد نظر ، والحق يقال ، نظرة مغالاة الى قوة القرن الثامن عشر الخلاقة . ويرى « بول هازار » ان آراء هذا القرن قد اكتملت تكوّناتها في القرن السابع عشر ما بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٧٠٠ ، وكان بمكنته ان يرقى الى ما قبل هذه السنوات . فان ما حققه القرن الثامن عشر هو في الدرجة الاولى نقل بعض التمهيلات والتوسع فيها ، وهذا ما رآه رينان بكل وضوح .

بيد ان القرن الثامن عشر يحضر العالم المعاصر ويلبى به ، بمواصلة اعمال شرع بها في القرن السالف ، وفاقاً لمبادئ سبق اقرارها ، وفي اتجاهات مينة سبق لتحديدتها . ان خطوطاً كثيرة من خطوط الازمنة اللاحقة ترسم فيه . العلوم تتطور تطوراً مدهشاً وتؤلف صرحاً كاملاً تتوجه العلوم الاجتماعية . الانسان يتعلم كل يوم ، ويعمق النظر ، ويرى ، ويبدو له ان الظلمات تنقهر : انه : « قرن الانوار » . تقدم المعارف ينمي الايمان بتقدم الانسانية تقدماً مستمراً شطر حالة عليا . ويشجع الكثيرين على ازدياد الماضي يدفعهم الى نبذ المتقدّمات القديمة والنصوص القديمة ، وبالفعل نفسه الى نبذ الحقائق التي تنطوي عليها وتعتبر عنها ببساطة ، بلغة وبيان مختلفين . فنجم عن ذلك بعض الازدياد بالمصور القديمة وعداة للكاثوليكية ، وقد نظر اليها معاً كما الى خرافات مضرة يجب نبذها . وفقدت الكنيسة الكاثوليكية الى حين بعض نفوذها وتقهّرت الكاثوليكية في كافة أنحاء العالم . وهذا ما يفسر قيام مفاهيم جديدة للعالم ، مفاهيم العقلين ، ومفاهيم القائلين بالدين الطبيعي ، ومفاهيم الماديين ، وقد ذهب بعضهم الى ابعاد من ذلك ، فرأوا ما يلاقيه الانسان من صعوبة في ادراك كنه الكون ، وتادوا بمجز العقل البشري اذا ما اراد تخطى حدود الاختبار وعلم الحساب ، وحدود معرفة الطواهر ، ولم يكونوا اقل عداة للتفسيرات القديمة حول نواميس العالم العامة ، فانابوا بالمنادية والفلسفة الوجودية المعاصرتين ، بينا بردت همة غيرهم جفاف العلم والعقل ، فانساقوا وراء نزوات قلوبهم ، وغدوا رومنطيقيين من قبل ان توجد الرومنطيقية .

وبلغ من تكامل التقنيات ان حدثت ثورة عسكرية ، وشبه ثورة ملاحية ، وحدثت في انكلترا ثورة صناعية ثانية ما لبثت ان تركت اثرها في البر الاوروي . ان اوروبا تتقدم الى الامام في عصر التقنية هذا مع ما انطوى عليه من نتائج اجتماعية .

في اوروبا ، ولا سيما في فرنسا ، تتحقق الاكتشافات والنجاحات . ان اوروبا ، بقيادة فرنسا ، تتقدم العالم بأسره . ففرنسا التي تقوم بينها وبين انكلترا منافسة سياسية واقتصادية ، تسيطر بالروح ، وقد بلغ من تفوقها الفكري ان اخذ مثقفو ذلك العصر يتكلمون عن « اوروبا الفرنسية » . وقد احرز الاوروبيون هذا التفوق ليس بفضل هذه القوى التي نقصد بها المعارف العقلية والمعارف العملية ، اي العلم والتقنية فحسب ، بل بتكامل تنظيم الممالك الهامة (الذي هو تقنية ايضاً من جهة ثانية) حيث نرى على العموم نزعة الى تطوّر مطرد مستمر في الدولة القوية التي تستخدم لمصلحتها ، استخداماً متزايداً ، وبواسطة ادارة حصرية متعاطمة ، قوى مواطنين لا تباعد بينهم فوارق اجتماعية كبرى في اغلب الاحيان . ولكن هذه الدول ، على الرغم من اوجه الشبه بينها ، الديانة المسيحية ، وانتشار مذهب العقليين ، وجماليات واحدة ، ولغة فرنسية مشتركة ، لم تتحد قط بل تنافست وامتشتت السلاح ؛ فليس هنالك من اوروبا سياسية .

بيد ان اوروبا تحرز من التقدم العلمي والتقني ما يجعلها تتخطى تخطيا بعيداً ، بقدرتها على العمل ، الحضارات الآسيوية القديمة نفسها التي لم تحرز عليها ، لمدة طويلة ، تفوقاً حاسماً . تواصل اوروبا فتح العالم واحتلاله وتطويره . الا ان الدول الاوروبية المنقسمة تتنازع العالم . الدول الاوروبية الهامة تتحارب في كافة الاوقيانوسات وكافة القارات : فهناك منذئذ سياسة عالمية . لا بل هنالك ، منذئذ ، جماعات اوروبية تنمو خارج اوروبا ، وينجز بعضها نموه ، حتى ان احداها ، وهي التي ستعرف مستقبلاً عظيماً ، نعي شخصيتها وتنفصل عن الوطن الام وتؤلف امة جديدة منافسة لاوروبا القديمة : الولايات المتحدة الاميركية .

انتهى تطور القرن الى ثورة . ففي كافة انحاء اوروبا نرى تزايد تداول الذهب والفضة ، وازدياد عدد السكان ، ونمو حجم المبادلات مع بلدان ما وراء البحر ، تفضي الى رفع الاسعار الحقيقية وتفتح اسواقاً جديدة وتضاعف المكاسب . في كل مكان تتوسع المدن وتكتظ بالسكان ، وتنمو البورجوازية عدداً وقوةً ، الا انها تصطدم بالارستوقراطيات والسلطة المطلقة الا في انكلترا الاوليغارشية حيث يحسن البورجوازيون وضعهم المدني والسياسي تحسباً منتظماً .

وانما يبرز هذا التطور في فرنسا بصورة خاصة . البورجوازية تغدو فيها الطبقة الاولى . الفلاحون والعمال يخضعون لها . كثيرهم على طبقة النبلاء والاكليروس ، المستفيدين الكبار من النظام القديم ، اللذين يداقمان عن وضعها باقصاء البورجوازيين عن الوظائف والمرتبات الرفيعة ، وعلى الملكية التي تقتفر الى الحزيم الضروري لتحقيق التغييرات اللازمة .

في السنة ١٧٨٩ ، انضمت الى هذه الازمة السياسية ازمة اقتصادية وازمة مالية القى الجميع

مسؤوليتها على الحكومة والمؤسسات . تسلمت البورجوازية زمام الحركة الثورية . أثلقت الجماهير جنود الاصطدام . قضت البورجوازية على « الاقطاعية » وحررت الفرد البورجوازي . واستطاعت بفضل المساواة المدنية والملمكية المصونة والمقدسة وسيادة الامة ان تضمن لنفسها ادارة المجتمع الجديد ومكاسبه والتصرف باموره .

منذ السنة ١٧٩٢ حتى السنة ١٧٩٥ ، أبرزت الحرب الاجتماعية بين المجتمع الجديد والمجتمع التقليدي ، استحداثات مشهده : الوحدات الحسابية الجديدة للعالم المعاصر ، مليسون البشر ومليار الفرنكات ؛ النظم السياسية والاجتماعية الجديدة : الدكتاتورية ، الديموقراطية ، الارهاب ، الاقتراع العام ، الجمهورية ، وهي « اشتراكية » دام ذكرها كأسطورة ونبوءة .

استولى الرعب على البورجوازية ، فلبأت الى الجيش . جاء نابوليون بوناپرت ، القائم بأعمالها ، يثبت الثورة ويؤمن للبورجوازية خير احرزاتها .

في عالم الحضارة الاوروبية ، غدا الاعلان البورجوازي لحقوق الانسان والمواطن الجبلا جديداً . تمللت الشعوب واندلعت الثورات . ولكن ردة فعل الملوك والارستوقراطيات كانت إرهابا ابيض . منذ السنة ١٧٩٢ حتى السنة ١٨١٥ قامت بين فرنسا واوروبا حرب اجتماعية اممية ، حرب دعاوة وتوسع ثوريين ، حرب دفاع عن « الحضارة » . فافضى دمج البلدان المحتلة وخلق الدول التابعة الى نشر النظم الاجتماعية والمؤسسات الفرنسية في كل مكان . وللتغلب على فرنسا ، اضطر الملوك لأن يقتبسوا طرائقها واساليبها . وعلى الرغم من هزيمة فرنسا وردة فعل السنة ١٨١٥ ، فان وجه العالم قد بقي متغيراً . « فانما نحن سفدة القرن الثامن عشر المباثرون » .